رسائل ومقالات

(١)

لمحات من منطلقات

الاعتقاد الصالح

وأبعاده وكيفية نموّه...

محمد علي باقري

رسائل ومقالات

(١)

لمحات من منطلقات

الاعتقاد الصالح

وأبعاده وكيفية نموّه...

محمد علي باقري

رسائل ومقالات

في المعرفة الدينية والاعتقاد

محمد علي باقري

الطبعة الثانية

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ مـ

للتواصل:
E-mail: muddakerat@gmail.com

بسـم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطّيبين الطاهرين

أمـا بعـد فإني كنت قد وجدت في الرد على رسالـة لمست فيها الـعفوية والصدق رغم بساطتـها الـفرصة للإشـارة إلى بعض ما أعرفه بشـأن منطلقـات الاعتقـاد الـديني ومنافذه وأبعـاده وآثاره... فعلقت عليهـا ونشرت التعـليقة على جدار المسجـد مع نص الرسالة المعلق عليها، إذ رأيت أن ذلك يجعل التعليقة أكثر واقعية من جهة ويكسر رهبة الكتابة في نفوس رواد المسجد من جهة أخرى

واستلمت بعد ذلك رسالة من نفس الشخص فرأيت أن أستفيد منها أيضـا لتوضيح بعض ما أردت توضيحه لرواد المسجد، فعلقت عليها ونشرتها كذلك..

ثم ظهر أن قراءة ما نُشر هنـاك متعبة بل غير ميسورة لبعض المؤمنين، فاستُحسن نشره في كُرّاس، وكان عَليَّ أن أراجعه وأصلح ما فيه بتوضيح ما أُبهم، وتغيير بعض الأمثلة... إلخ، ولكني لم أتهيّأ لذلك، فها هو ينشر كما كان من دون تعديل يُذكر...

كما وأني قد ضممت إلى الجوابين المنشورين جوابين آخرين كتبتهما على رسالتين أخريين وصلتاني بعدئذ بنفس الصدد...

× × × × × × × × × ×

هذا وبما أن هذا الكُرّاس إنما يتناول ما يرجع إلى أصول المعرفة والاعتقاد فالاستفادة منه لا تتمّ إلاّ بالتعقل الذي يتطلب الاهتمام والدقة، لا فقط لما هو معروف من عدم جواز التقـليد في العقائد الـدينية كما أشار إليه – مثلا – السيد محمد باقر الصدر رضوان اللّه عليه في مقدمة (الفتاوى الواضحة) بقوله:

« ... ودَعَت الشريعة كل إنسـان إلى أن يتحمل بنفسه مسؤوليـة عقـائده الدينيـة الأساسيـة بدلا من أن يقـلد فيهـا ويحمل غيره مسؤوليتـها. وقـد عنّف الـقرآن الـكريم بأشكال مختلفة أولئـك الذين يبنون عقائدهم الدينية ومواقفهم الأساسية من الدين قبولا ورفضا على التقـليد للآخرين بدافع الـحرص على طريقة الآباء مثلا والتعصب لهم، أو بدافع الكسل عن البحث والهروب عن تحمل المسؤولية »

أعود فأقول: ليس تعقل ما في هذا الكُرّاس ضروريا لهذا فقط، بل – وقبل ذلك – بما أنه إنما يحاول وصف العقيدة الدينية باعتبارهـا حركة طبيعية تجري في النفس البشرية وفق نظام قابل

للرصد والتعقل بإجماله... فإن فهمه لا يمكن أن يتمّ للشخص إلا بالتعقل المبني على أساس من ملاحظة شخصية لنفسه...

× × × × × × × × × ×

ومن نافلة القول أن هذا الكرّاس ليس محاولة لتجهيز المعرفة تجهيزا تامًا ومن ثمّ نقلها إلى ذهن القارئ، فإن ذلك مما لا يرتضيه الكاتب في المسائل العقائدية بشرح سيجد القارئ ما يشير إليه طيّ الكرّاس... ، فالثغرات الكثيرة المنتشرة في الكرّاس مقصودة بإجمالها، وإن كان لضعف الكاتب وضيق المجال وعوامل أخرى أيضا تأثير على ذلك...

وعلى أي حال فإني أرجو أن يجعل اللّه في هذا نفعا، وما ذلك عليه بعزيز...

والحمد للّه ربّ العالمين

محمد علي باقري

٢٠/ جمادى الثانية/ ١٤١٧

الرسالة الأولى

بسم اللّه الرحمن الرحيم

..... يوم الثلاثاء صباحًا ٢٩ صفر ١٤١٧

السلام عليكم ورحمته وبركاته

بالنسبة للتساؤل الذي طرحتموه: لِمَ لم يتّخذ الرسول (ص) إجراءات معيّنة لتفادي ما حصل وليتمّ الأمر (لأمير المؤمنين – ع –) وفق ما شرّعه اللّه؟

إذا سمحتَ لي بأن أكتب ما جاء في ذهني بالنسبة لهذا التساؤل والرجاء تصحيح الخطأ عندي وهل أنا على صواب من تفكيري هذا أم لا وعموما أنا مؤمن به لكن معرفتي بالدين قليلة فلذا أشكّ بنفسي.

إن ما حدث بعد وفاة الرسول (ص) فيه حكمة إلهية بأن يُترك الناس ليأخذ كل منهم طريقه بوجود ظروف مهيّأة لاختيار طريق الحق لكن بدون فرض ظروف معيّنة أو كما قلتَ أنت إجراءات معيّنة، ولو كان عمل رسول اللّه (ص) بهذه الإجراءات ليتمّ الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام بالإجبار وعلى كراهة بعض الناس أو أكثر الناس، أما الذي حصل لم تُترك حجة للذين لم يوالوا

عليًـا (ع) أمام اللّه سبحـانه وتعـالى لأنهم بالمعنى الأدق لم يوالوا رسول اللّه (ص) الذي يدعو إلى اللّه تبارك وتعـالى وبالتـالي فهم لم يؤمنوا باللّه أبدًا، فـهُم اختُبروا أحسن اختبـار، ونحن الآن نُـختبر بنفس الاختبـار مع تبدّل الأشياء والوجوه والوقت.

– بفهمي الـقاصر أنا دائما أربط الأحداث الآن وقديـما بقصة آدم عليه السلام مع إبليس – فهل تفكيري صحيح أو أصححه؟

وجزاكم اللّه خيرًا

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الأربعاء ٣٠ صفر ١٤١٧

الجـواب

عليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته

١ – إني لا أجد – عادة – رغبة ولا مجالا لتصحيح الأخطاء الشخصية الراجعة للمعرفة، ولكني لمستُ في رسالتك صدقا وبوادر اهتمام بالدين، فرأيتُ أن أجيب عليها بما أرجو أن يكون نافعا، ورأيت أن أعلّق الجواب في المسجد عسى أن ينفع أيضا من كان وضعه كوضعك

٢ – تحليلك للموضوع صحيح بإجماله، غير أن صحته وحدها لا تدلّ على المعرفة، كما أنه لو كان خاطئا لم يدل كذلك بمفرده على عدم المعرفة، فقد يكون شخص ذا معرفة ولكنه يخطئ في تحليل بعض المسائل الدينية

المعرفة عبارة عن فهم عام لروابط الأمور ومواضعها، فمثلا: لو كانت أمّ امرئ اسمه (ج) مثلا أو بيئته قد ربّته على ذكر أمير المؤمنين عليه السلام فتعلق به وأحبه، وبعدما كبر أخذ يقرأ عن حياته فحفظ كثيرا من أخباره، فهذا ليس هو المعرفة المطلوبة، حتى وإن

استطـاع العمل بكثير من أقوال الإمام عليه السلام وأعمـاله، كما لو قد وجد الإمام عليه السلام كان يلبس الثوب الرخيص، فاقتدى به في لبس ثوب رخيص... ، فإن هـذا ليس عملا بمعرفة

وأما إذا علم (ج) أن الإمام عليه السلام كان يلبس الثوب الرخيص تأسيا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فهو بهذا يؤشر إلى النبي صلى اللّه عليه وآله، فهذا المفهوم يحركه إذن إلى البحث عما كان يفعله، كما وأن (ج) يرى نفسه بحاجة حينئذ إلى تعقل معنى التـأسي وهل أنه مجرد تطبيق حرفي لـعمل كل من النبي والإمام، أم أنه اتبـاع لـهما في المشي الهادف على صراطهما، فهو بحـاجة إذن إلى معرفة سبيلهما ووِجهتهما، وكيفية سلوكهما لذلك السبيل...

ثم وإن (ج) يجد نفسه بحـاجة إلى أن يعرف هل الاتباع الـمطلوب هو سلوك، أم أنه رغبة وسعي قد لا يستتبع عملا في الخارج لمانع من الموانع المستضعِفة للإنسـان، كما ويجده حينئذ بحاجة إلى فهم نفسه وإمكانياتهـا وما يساعدهـا على التأسي بالنبي صلّى اللّه عليه وآله، وما يمنعها عن ذلك...

ومضافا إلى ذلك فبما أن نفس (ج) التي يفترض كونها متطلعة إلى المعرفة لا تشبع من عـلم، كالشـجرة التي لا تتوقف عن النـموّ الـمستمرّ، فسوف يبـحث (ج) – فيمـا يبحث – عن ملابسـات أخرى لرخص لبـاس الإمام عليه السلام، بما منها ارتباطه بإمامته مثلا...

هذا والـمأمول أن لا يُتعـامل مع الأمثلة التي ذكرتهـا إلا كمجرد مؤشرات سريعة مبسطة للمعرفة، فإن المرء الطالب للمعرفة سيجد بنفسه أمثلة كثيرة من حياة المعصومين عليهم السلام للانطـلاق منها إلى معرفتهم، بل إن المنطلقـات الصالحة إلى المعرفة هي ما يجدهـا الطـالب بنفسه ولو بالاستعـانة، لا التي تُملى عليه، فإن ذلك قد يقود إلى تصنع في الحركة...

وعلى أيّ حال، فلو أن نفس (ج) آمنت بضرورة هذه الـحركة الشجرية ورغبت فيها، فبدأت بالتحرك في ذلك الاتـجاه، فهو – إذن – على صراط المعرفة، وستنمو نفسه بصورة صالحة إن شاء اللّه وستصبح بالتدريج أكثر معرفة وإيمانا فأكثر، مثلما تنمو البذرة نموًا شجريا، فقد تصبح بالتدريج شجرة كبيرة أوصغيرة، قوية أو ضعيفة، حسبما للبذرة من إمكانيات ذاتية، وما تتهيأ لها ظروف النموّ، وما تواجهه من موانع...

× × × × × × × × × ×

فلوكنت أنت كما وصفتُ آنفا فإن كون (معرفتك بالدين قليلة) – كما قد وصفت حالك في رسـالتك – إنما يعني التدرج الذي لابدّ منه في المعرفة، وحتى لو لم تتوفر لك الـظروف الـمناسبـة فلم يحصل لك النموّ المرغوب وظلّت معرفتـك قليـلة، فأنت على الـصراط بموالاتك لإمامة الـطريق وائتمامك بها بقلبك ونيّتك

وسعيك... ، وأما لو كان الشخص ممن لا يستطيع حتى تشخيص اتجاه الطريق فلا يستطيع تشخيص الإمام من الأساس ليُحبّه كإمام ويرغب في معرفته، فهو إذن مستضعَف لا يكلفه اللّه إلا وُسعه وحسابه على اللّه عزّ وجلّ العالِم بوُسع كل نفس...

وإن كنت قصدت من قولك بأن معرفتك بالدين قليلة ما يتصوره أكثر الناس من كون المعرفة عبارة عن مجموعة من المعلومات الفكرية فمن ملك منها عددا أكثر كانت معرفته أكبر، ومن ملك منها كمية أقلّ كانت معرفته بتبع ذلك أقلّ... ، فإني أراك على خطأ، وأظن أن هذا المقال سيساهم في تصحيحه إن قرأته بتدبر...

× × × × × × × × × ×

إني لم أفهم مقصودك من قولك: « ... فهُم اختُبروا أحسن اختبار، ونحن الآن نُختبر بنفس الاختبار مع تبدّل الأشياء والوجوه والوقت » فإني وجدته كلاما عامًا لا يزيد المرء علما، ولا يشخص له عملا، وإني أظن هذا الأسلوب متأثرًا بمقالات وعظية أو خطابية...

ثم، وحتى لو افترضنا أن المقارنة كانت دقيقة ونافعة، فإني لم أجدها مما يجسّد المعرفة، فإن التعامل المعرفي مع المسائل لا يكون بهذه الطريقة، وإني أحاول توضيح هذا فأقول:

نفترض أن فهمك وتحليلك لما حدث آنذاك كان صحيحا، ونفترض كذلك صحة تشخيصك لما نحن فيه، ولنفترض أيضا أن تشبيهك لهذا بذاك قد نفعك شيئا جديدًا... فإن هذا ليس إلا حركة سطحية، وانتقالا متكلَّفًا من حادثة إلى أخرى... ، فهو إذن ليس حركة نابعة عن معرفة

والمعرفة هي أن تكون نفسك قد واجهت ذلك الحدث التاريخي في حركتها النابعة من فطرتها، فبحثته لا لشيء غير وقوعه في طريقها إلى ربّها وحسب، فعرَفَتْه واعتَقَدَتْه وتغذّت به فنَمَتْ وازدادت قناعة وإيمانا... كما ينمو الجسد بغذاء صالح يطلبه ويطعمه بغريزته فيزداد قوة، وكما تنمو الشجرة بما تجده من غذاء مناسب فتزداد ارتفاعا وصلابة...

ثم وإن نفسك النامية ستتعامل حينئذ مع أي حادث آخر وفق هذا النموّ (المعرفة) الحاصل فيها، وبما أن ما هو الموجود في نفسك ليس مفهوم ذلك الحدث وحده، بل مفاهيم أخرى كثيرة، بل إن الذي يوجد في النفس ليس مفاهيم الأشياء بذواتها، وإنما حصيلتها ونتيجتها المتجسدة في حالتها الخاصة، وذلك كحصيلة أنواع ما يتغذى به البدن، المتمثلة في نموّه وقوامه...

أعود فأقول: بما أن المعرفة الحاصلة في النفس إنما هي نتاج مفاهيم كثيرة متمازجة، فتعامل النفس مع أي مفهوم أو حدث

جديد إنـما يتـأثر بتلك المعرفة، لا بمفهوم معيَّن مما كانت قد تكوّنت منه المعرفة

أجل، إن النفس إنما تضم المفاهيم والأفكار التي تتلقاها إلى بعضها البعض وتخلطها، وذلك بشكل تلقائي ووفق طبيعة النفس في التعامل مع الأمور، وأيضا بطريقتها الـخاصة في الموازنة والتنظيم، وبهذه الطريقة تتغذى النفس بالمفاهيم وتنمو بها...

× × × × × × × × × ×

لأجل توضيح هذه المسـألة المهمة جدًا فإني أحاول أن آتيها من باب آخر، وأصيغها صياغة أخرى فأقول: إن المفاهيم الدينية المسموعة أو المقروءة التي يتلقاها المرء قابلة لأن تُتعامل بثلاثة أنماط رئيسية من التعامل:

الأوّل: أن يجمعهـا في ذهنه ويختزنها في ذاكرته كما هي من دون أيّ تغيير، بغية الاحتفـاظ بهـا بتصور أن ذلك يكفيـه معرفة وعلمـا، أو الـعمل وفقهـا قدر الإمكان، أو للطرح على الغير. أو للتباهي بها وما شاكله من غايات دنيوية أخرى... فهو بهذا يكون كمن يجمع كتبا فيجعلها في خزانة لغاية أو أخرى...

الثاني: أن لا يكتفي باختزانها في ذاكرته بشكل متجزّئ، وإنما يقوم بغربلتها وتعديلها وتركيبـها مع بعض والتصرف فيها وإثراء

صحيحهـا وتعميقه من جهة، ورفض خاطئهـا من جهة أخرى، وغير ذلك من عمليات ذهنية يقوم بها كثير من الناس تجاه المفاهيم الدينية بدرجة أو أخرى... ، فهو إنـما يفعل كل هذا أيضـا للاحتفاظ بالمفاهيم الدينية المتبلورة، بتصور أن ذلك يكفيه معرفة وعلما، أو العمل وفقها قدر الإمكان، أوللطرح على الغير، أو للتباهي بهـا وما شاكله من غايات دنيوية أخرى... ، وهـذا ما أسمّيه بالتعامل الذهني مع الأفكار، وهو منتشر بين المهتمين بالفكر وإن كان دينيًا...

الثالث: أن يتلقى المفهوم لا لشيء إلا لحاجة نفسه الطبيعية إليه، فمثل نفسه في هذا كمثل الفرخ الـجائع الفاتح منقاره لالتهـام الطعـام الذي تجهّزه له أمّه... ، فكذلك تلتهم النفس النّهِمُ المفهومَ الجديد، فيمتزج هنالك – تلقائيا – في العقيدة القـائمة فيها، إن كانت موجودة، فيزيدهـا وضوحا ورسوخا وقوة، أو يؤسس فيهـا عقيدة إن لم تكن موجودة، أو يسبب فيها تغييرا معينا...

أجل، إن النفس لا تتعـامل مع المفاهيم التي تتلقاهـا كما يفعله البنّاء من رصّ الآجرّ وضمّ بعضها إلى بعض بطريقة معينة مثلا، بحيث يمكن الإشارة إلى أيّ آجرّة منها ضمن مجموع البناء بل كما يفعله الرسّام بنقاط الصبغ التي يستعملها في الرسم، حيث أن كل نقطة من تلك النقـاط وإن كانت تساهم في نموّ الرسم وتبلوره وتجعله متـغيرا باستمرار، ولكنهـا ذائبة في غيرها من النقـاط، فكما

لا يمكن الميز بينهـا، فكذلك لا يمكن الميز بين المفاهيم التي قد استعملتها النفس للتدين

× × × × × × × × × ×

وعلى هذا الأساس يلاحَظ: أن مَن بدأت تتكوّن لديه المعرفة يجد – بدرجة أوأخرى تبعـا لدرجة المعرفة الـمتكونة لديه – أنه لا يملك مفـاهيم جاهزة مستقلة عن بعضهـا قابلة للنقل إلى الآخرين، وإنـما يستطيع أن يختار بُعدا من أبعاد الحقيقة الموحدة المتحصلة في نفسه من تمازج المفـاهيم والتي نسميهـا بالمعرفة، فيبحث عن عبـارة تعبر عن ذلك البُعـد وتؤشر إليه ليـدلّ بهـا إنسـانا أو أناسا معينـين إليه، فيحصل لـديه بذلك مفهوم معيَّن قابل للطرح لا على جميع النـاس، وإنـما على شخص أو أشخـاص معينين لـمساعدتهم في التـفكير والوصول إلى الـمعرفـة التي ليس ذلك الـمفهوم إلا مجرد مؤشر إلى بُعـد من أبعادها...

فصـاحب المعرفة في طرحه مفهومـا على غيره يعـاني من أمرين مترابطين: صياغة الـمفهوم صيـاغة تأشيرية، أي لمجرد أن يؤشر إلى جانب من الحق المطـلوب، للفت انتباه الـمستمع (أو الـقارئ) ودعوته إليـه فحسب، إذ أن صاحب الـمعرفة يعلم بوضوح أن المفاهيم لا يمكنهـا استيعاب الحقيقة وبيانها ونقلها

إلى الآخرين جاهزة، وإنما الإشارة إلى شيء من الحق لمجرد لفت الانتباه فقط...

وثاني الأمرين: ملاحظة الـمستمع ومدى فهمه وحريته وقدرته ورغبته لا في تلقي مفاهيم معيّنة، بل في البحث عن الحق من خلالها... ، فإنه لو افتقد شيئا من تلك الخصال فسوف لا يتعـامل مع المفهوم الـمتلقّى كمؤشر ومنبّه، فبذلك يضيع المفـهوم، بل يتـلوّث ويتشوّه... وإن كان في نفسه صالحا

فبنـاء على هـذا وذاك، فإن صاحب المعرفة يعـاني كثيرا في طرحه مفـهوما معرفيا على أحد، ويتأذى جدّا من تشوّهه وزلَقِه بمساره واتجاهه، رغم ما كان قد بذله من جهد في جعله نافعـا، شـأنه في ذلك شأن من كان قد كَدّ وهيّأ دواء معيَّنـا فنـاوله المريض فلم يفده، بل زاده مرضا! ...

× × × × × × × × × ×

وأطلّ على المسـألة من نافذة أخرى فأقول: إن التعامل الصحيح الوحيد مع المفهوم المعرفي الذي يسمعه المرء أو يقرؤه هو أن يتلقاه لا لشيء إلا ليتدبره ويعرضه على نفسه التي يُفترض سلامتها، فإنها سوف تقبل المفهوم حينئذ إذا كان صالحا، وينعكس ذلك في أنها

تنمو وتزداد علما وإيـمانا بمقـدار ما للمفهوم المتلقَّى من أهمّيّة، ولأوضح هذا الأمر المهم فيما يلي:

ولنفترض أن هنالك امرء اسمه (إبراهيم) الذي نفترض أن نفسه خالية عن أي شيء غير إمكانياتها الـذاتية وحالتهـا الـفطرية، فهو بفطرته يجد أن له ربّا فيسعى إليه ويبحث عنه... ، وبإمكانياتهـا الـذاتية تستـطيع نفسه التيقن بالتـدريج من وجه اللّه الـذي يبحث عنه... ، وذلك بالطريقة التالية:

بما أن إبراهيم يبحث عن ربه وموقعه ووجهه ليأتيه، وبما أنه بعدُ في بداية الطريق فهو يحتمل أن يجد في أي شيء ما يدله على ربه، ومؤشرا يؤشر إليه، ولكن بما أنه لا يعيش بمعزل عن النـاس، فهو يستعين بأقوالهم وأفعـالهم بهذا الـصدد، انطلاقا مما في داخله من إحساس طبيعي عام يدعوه إلى الاهتمام بتجارب الناس في جميع شؤون الحياة... ، فهو يتدبر أي شيء يعامله الناس كمظهر للّه سواء فيما يجسّدونه بما يشاهـده من أفعالهم، أو يسمعه من أقوالهم...

فمثلا لو سمع من أحد مفهوما يؤشر إلى جانب في جهةٍ يفترض أنهـا وجه اللّه عزّ وجلّ، وارتاحت له نفسه البـاحثة عن الـحق بدأت نفسه تـحتمل أن يكون ما يؤشر إليه المفهوم المسموع هو سبيل اللّه الذي تطـلبه... ، وإذا سمع مفهوما آخر يشير إلى جانب

آخر من نفس الاتجاه ويصب في نفس المصبّ، وكان مما تتقبـله النفس كـذلك، ازدادت درجة الاحتمال... ، وهكذا إلى أن يتلقى بالتدريج مجموعة كبيرة من المؤشرات التي تشير إلى أبعاد الوجه المتعددة، فتتضح له من تآلف تلك النقـاط المتعددة وترابطها ملامح طريق... فتزداد درجـة الاحتمـال بكون ذلك الـطريق هو الـهدى زيادة كبـيرة لتبـلغ العلم والإيمان والاطمئنان، إحسـاسا كامنا في نفسه بأنه لو لم يكن الطريق المكتشف هو الهدى لـما تفاعلت نفسه مع جميع تلك المفاهيم التي قد دلّته عليه، ولما اندفعت بما كان كل منها يدفعهـا فيه، فإن نفسه لم تنتظر لينكشف الطريق تماما فتبدأ بالتحرك، بل كانت تتحرك مع كل مؤشر فتجرب الطريق تلقائيا، وتتأكد منه عمليا...

× × × × × × × × × ×

ثم ومن جوانب المعرفة المهمّة الكثيرة جدا، بل المتكاثرة باستمرار: هو ما كنت قد أشرت إليه من أن استفادة المعرفة من المفاهيم لا تتيسّر إلا برغبة النفس النابعة في أساسها من انـجذابها الـفطري إلى الـحق... ، والذي أريد قوله الآن هو أن على المرء الـطالب للمعرفة أن يبحث عن العوامل التي قد تدفع المرء إلى الاهتمام بالـمفهوم الديني لا رغبة في الدين وطلبا للحق بل تأثّرًا

واندفاعًا بتلك العوامل فيشخصها بالضبط ليحاول الابتعاد عنها، وهذا النوع من العوامل كثيرة ومتنوعة ومنتشرة بشكل فظيع...

وليس معنى هـذا الكلام أن على المرء إذن أن يدَعَ نفسه وشأنها فلا يتصـدى لـها، لـكي لا تفقد حرّيتهـا الـمطلوبة في التعامل مع المفاهيم الدينية... ، وإنما معناه أن المعرفة الدينية الصادقة لا تحصل للمرء إلا أن تكون نفسه تطلبها وترغب فيها... ، وأما أنها كيف ترغب في الدين، ومتى ترغب، وما هي موجبـات استمرار رغبتها، وما هي موانعـها... فذلك أمر سيجـد طالب الـمعرفة بنفسه خطورتـه فيبحث عنـه، وإن وجدني لم أذكره فتصور أني لم أرَه مهمًا مثلا... ، وحتى لو كنت قد صرّحتُ بذلك جهلا أو غفلة...

× × × × × × × × × × ×

لوكان الذي قد ذكرته استطاع دلالة القارئ على ما قصدتُه وجعله يتدبّر الأمر لِيَعِيه، فإني أراه حينئذ يشخص أن كثيرا من الأحاديث الدينية الـمقالة أو المكتوبـة ليست قابلة للتحوّل إلى معرفة، وأن أكثر الذين يسمعون أو يقرءون الأحاديث الصـالحة القليلة وإن كان باهتمـام، لا يستـهدفون بهـا الـمعرفة، وأن كثيرا منـهم غافلون بأنفسهم عن هـذه الـمشكلة، ومن أكثر هؤلاء إخلاصا من يطلب المفاهيم المعرفية للعمل، فيجهد لـذلك، ومن الطبيعي أن يفشل، فيقنط! والسبب الرئيس أنه قد قفز بالمفهوم المعرفي

الذي إنما هو غذاء النفس، إلى الـعمل مباشرة قبل أن يكون قد نضج داخل نفسه وتـحوّل إلى معرفة تشخص له الأمور وتضيء له الـطريق وتبصره به، فمن ثَمّ أثمرت عملا في الـخارج إن توفّرت له الأرضية المناسبة...

× × × × × × × × × ×

ومهما كان من أمر فإني قد وجدتُك انتقلت أفقيا من قضية معيّنة إلى أخرى وربطت بينهما من دون أن تمر حركتك عبر المعرفة المتكوّنة من قضـايا كثيرة منصهرة في صورة موحدة... فإن المعرفة لا تنمو أفقيا أو عموديا، وإنما شجريا، فكما أن كل ثمرة من ثمار الشجرة ليست إلا نتاج الشجرة ككل، فكذلك البصيرة إنما هي نتاج المعرفة القائمة في النفس كشجرة طيّبة متكونة من أفكار مختلفة متمازجة...

× × × × × × × × × ×

وأما ربطك للأحداث الآن وقديما بقصة آدم عليه السلام وإبليس فإنه أيضـا عام من جهة وحركة في اتجاه واحد أفقي (أو عمودي) من جهة أخرى، مضافا إلى أني لم أفهم كيفية ربطك بين الأمرين... فلا أستطيع الحكم عليه بالصحة أو الفساد حتى بالأسلوب المتعارف للتعامل مع الأفكار... ، ثم وإني قد تعجبتُ من قولك: « فهل تفكيري صحيح أو أصححه » لا لتعـاملك

التجزيئي الـعجيب مع الأفكار واعتبـارك كل فكرة مستقـلة عما حولها ككتب مصفوفة في رفوف مكتبة مثلا... بل لقدرتك على تغييرها بقول قائل ونصح ناصح! فإني لم أكن أتصور أن أحدا يستـطيع أن يغير (تفكيره) بهـذه السـهولة، وإن كان قد تصنعه بذهنه وحسب ولم تعرفـه نفسه ولم يعتقـده قلبه! بل وحتى إذا كان مقصودك بـ(تفكيرك) القابل للتصحيح هو التصور البدائي الذي يتصوره المرء ليبـدأ منه البحث عن المعرفة...

وعلى أي حال أرجو أن يصلح اللّه أمري وأمرك ويجعل عاقبة أمرنا خيرًا ولا يتوفّانا إلا مسلمين... ، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

× × × × × × × × × × ×

وفي الختام أؤكد ما لا أظنه يخفى على عاقل أن ما ذكر في هذا المقال ليس إلا مجرد إشارات جدّا سريعة إلى شيء قليل ومتفرق من جوانب المعرفة التي تكاد أن لا تُحصى، فهو لا ينفع إلا من تعامل معه كذلك...

.....

محمد علي باقري

٦/ ربيع الأوّل/ ١٤١٧

الرسالة الثانية

بسم اللّه الرحمن الرحيم ١٩ ربيع الأول ١٤١٧

.....

في البداية أشكرك على الاهتمام بالرد على شخص بسيط مثلي، وأشكرك على المقال الذي كتبته فوجدتُه ضروريا بالنسبة لي (١)

.....

– في الصفحة الثانية الفقرة التي تبدأ بـ « ومضافا إلى ذلك فبما أن نفس (ج)... بما منه ارتباطه بإمامته مثلا »

الموضوع: أنا أرى أن المشكلة بأن عندي عقيدة باللّه تعالى وبرسوله (ص) وبأئمته (ع)، فلوكان شخص صغير السن وليس عنده تراكم من المعتقدات الصحيحة والخاطئة فسيكون أسهل عليه فهم الأمور (٢)

لا أعلم المثال الذي ضربتموه على رخص لباس أمير المؤمنين (ع) أو مثال آخر على طعامه هل هو مرتبط بإمامته لي أم لا؟ (٣) وكيف لي أن أعرف أين أضع يدي على الإجابة (٤)، فلنفترض أن هذا الشخص (ج) يحب الإمام ويقتدي به ويسعى للاقتداء به طول حياته، ويتدبّر معنى أن الإمام يلبس لباس أضعف الناس وأفقر الناس فيرفع من شأن الفقراء فيسقط اللباس الفخم من

أعين الناس، فيظل النـاس يسعون للّه تعـالى، فلا تزيغ قلوبهم على لبـاس فخم أو مأكل طيّب وجيّد أو أموال أو أيّ شيء يجرّ إلى الـدنيا وينسي الآخرة (٥) وأكيد فيه جوانب أخرى لا أعلمها، أو لم أتوصل إليها (٦) فالسؤال هو ما هو الشيء الذي يربط عمل (ج) بائتمامه لأمير المؤمنين (ع)؟ (٧)

– المقال الصفحة التاسعة عشر الفقرة الثانية « على المرء الطـالب للمعرفة... لا رغبة في الدين بل تأثّرًا واندفاعا بتلك العوامل فيشخّصها للابتعاد عنها »

لو تفضّلتَ بضرب مثال على إحدى هذه العوامل مع الشرح إذا أمكن مع العلم بأني أجد الرياء والإعجـاب بالنفس والتـكبر – وحتى شخص يتـديّن فيزهـد ويتـقشف وفي نفسه أنه يبهر الناس بقدرته على هذا العمل – من هذه العوامل. فماذا تجد أنت؟ (٨)

– أما الفقرة التي تليها « المعرفة الدينية الصادقة لا تحصل إلا أن تكون نفسه تطلبها وترغب بها... أما أنه كيف ترغب ومتى وموجبات استمرار رغبتها وموانعها... »

وددت لو تفضّلت بتزويدي بمثال على كل واحدة منهـا حتى أقارنه بما أعرفه (٩)، وحتى أتعرّف على الطريقة الصحيحة للتفكير

– الإنسان قلق ومتوتر فيرغب بالدين فيتقرب إلى اللّه تعـالى

فيشعر بالأمان والقوة فيزول التوتر والقلق إلا قلق كيفية التقرب إلى اللّه تعالى وهل تبارك وتعالى راض عنه أم لا؟

ملاحظة: إذا كنت تريد الإجابة على تساؤلاتي وتعتقد بأنها لا تنفع غيري فيكون الرد شخصيا أفضل (١٠)، أما إذا وجدت أن أسئلتي غير مخجلة فلا يوجد عندي أي مانع من إعلانه في المسجد، وأعذرني على صراحتي (١١)

ويجزيك اللّه خير الجزاء

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الجـواب

(١) كنت أرغب وأتوقع أن يتبيّن لي كيف كان المقال ضروريا لك، وماذا كان قد أعطـاك بالـضبط ... ؟ فإني لم أجد في رسـالتك ما يوضح لي شيـئا بهـذا الـصدد، بل وجدت ما استنبطتُ منه أن الـمقال لم ينفعك، وسأبيّن في هـذا التـعليق بعض الشواهـد على ذلك، عسى أن تنبّهك إلى ما لعلك قد غفلت عنه... وتنفع غيرك إن شاء اللّه

---

(٢) لو كان امرؤ قرأ مقـالي السـابق بحُرّية وإمعان لأَلَمّ بكيفية تكَوُّن الـعقيدة في النفس، وعرف بأني أرى أن العقيدة الدينية الـصالحة الناتجة عن المعرفة ليست عبارة عن مجموعة من أفكار صحيحة وغير صحيحة، وإنما نتاج مفاهيم كثيرة متمازجة...

وهـا أنا إذ أدعوك إلى مراجعة الـمقال أكرر لك هنا تلك المسألة (أي مسألة كيفية تكَوُّن الـعقيدة في النفس) بعبـارة أخرى مختصرة مع شيء من الإضافات التي يتطـلبها المقام فأقول: إن ما قد يجتمع عند الشخص إنما هو أفكار ذهنية صحيحة وأخرى

باطلة، لا « معتقـدات صحيحة وغير صحيحة » فإن الـمعتقدات ليست في أساسهـا إلا معتقدا واحدا صحيحـا، وإن كان فيه شيء من نتاج الأفكار الـخاطئة غير المؤثرة، أو أنهـا في حقيقتها معتقد باطل موحد كذلك، فإن مكان العقيدة هي النفس، وهي لا تستطيع تقبل فكرتين مختـلفتين، فكل فكرة تتلقاهـا النـفس من الـذهن لابد وأن لا تنـاقض الـصورة الموحدة الـمؤلَّفة من الأفكار الأخرى الموجودة فيهـا، بل يجب أن تعـانق تلك الأفـكار فتذوب في الصورة المكوَّنة منها...

فلو لم تكن الفكرة الجديدة ملائمة للأفكار القائمة في النفس بشكل مترابط متشابك كعقيـدة موحدة، حاولَت النفس أن توفق بينهمـا وتجعلهما متنـاسقتين، وذلك بالتصرف في الفكرة الـجديدة لتصبح قابلة للذوبان في الـصورة العقائدية القائمة، وإن لم تتمكن من التوفيق رفضت الـفكرة الـجديدة وطردتهـا، إلا إذا كانت مهمة آبيـة الرفض قامت النفس حينئـذ بمراجعة الـصورة الـموجودة فيهـا وصياغتهـا لتستـطيع احتضان الـفكرة الجديدة... ، كل ذلك في حدود ما تجيزه الأساسيات المركوزة في النفس فلا يمكنها أن تتجاوزها في القبول والرفض للأشياء...

ويجب أن لا يخفى أن هذا لم يكن إلا تحليلا ذهنيا مبسطا، لا تصويرا حقيقيا لعملية الاحتضـان، أو الرفض، أو التوفيق التي

تـحصل في النفس بتلقـائية وبسرعة عظيمة تأبى الرصد والملاحظة في حينها... ، ولا يخفى أيضا أن ما قد نسبتُه إلى النفس من العمليـات المذكورة قد يقوم بها الذهن للنفس، فإن الفصل بين وظيفتيهما ليس ممكنا لي...

ومهما كان من أمر فبناء على ما ذكرتُ، فإذا كان ما في نفس المرء عقيدة صالـحة فذاك، وإن كانت عقيـدة دينيـة باطلة ناتـجة عن سبب ضالّ، فإنه سيتصرف تلقـائيا في الـمفاهيم الـصحيحة التي يواجههـا، فيقوم بخنقها وتشويهها لأن لا تصطـدم بأساسيات العقيدة الضالة الموجودة في نفسه

× × × × × × × × × ×

هـذا، وإن تلميحك بصعوبة فهمك للأمور كان مؤشرا جيّدًا وخطوة ضرورية في الطريق الصحيح، فإن من يطلب المعرفة لابدّ وأن يلاقي صعوبة كبيرة لا تتذلل إلا بجهد شاقّ ومستمر لا يتحمله إلا الـمؤمنون المخلصون الذين لا يمكنهم الاستغناء عن العلم، إذ يجدون في نفوسـهم حقيقة رواية الكافي (١/ ٣٠) أن « طلب العلم فريضة » ، وحقيقة روايته (١/ ٣٤) عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآلـه: « مَنْ سَلَكَ طَرِيْقًـا يَطْلُبُ فِيْهِ عِلْمًا سَـلَكَ اللّه بِهِ طَرِيْقًـا إِلَى الْـجَنَّةِ... » فيطـلبون الـعلم « وَلَوْ بِسَفْكِ الْـمُهَجِ وَخَوْضِ اللُّجَجِ » كما في رواية الكافي (١/ ٣٥) أيضا، وأما تفسيرك لصعوبة فهمك

فهو بحاجة إلى شيء من النقاش بُغية إزالة ما فيه من التشويش الذي يضرّ بسلامة حركتك في طريق المعرفة... فأقول:

١ – من المجرب المعروف أن كبر السن لا يؤثر سلبا على فهم المرء للمسائل الراجعة للمعرفة، بل قد يؤهله لأن يفهمها أفضل من الشخص صغير السنّ الذي يفتقد – عادة – الحكمة والنظرة الواقعية المتأنية إلى المسائل، وذلك مما لابدّ منه في المعرفة التي أساسها التعقل... وليست المعرفة معلومات فكرية جاهزة لتُحفظ كي تحتاج ذاكرة نشطة يتمتع بها صغير السن عادة أكثر من الكبير أجل، إن الشاب – عادة – يكون أقدر على تبني ما يعرف، وأسرع في الاعتقاد به بشرح لا مجال له الآن

٢ – وأما ما عبرت عنه بـ « تراكم من المعتقدات الصحيحة والخاطئة » فهو قد يسبب للمرء مشكلة ويمنعه عن فهم مسائل المعرفة، إلا أن فهم تلك الحالة – أي حالة التراكم – بصورة صحيحة سيساهم في علاج المشكلة، لذلك فإني أحاول أن أشرحها فيما يلي:

أظن أن ما قصدته بـ« تراكم من المعتقدات الصحيحة والخاطئة » هو تراكم معلومات فكرية صحيحة وخاطئة ناتجة عن قراءة مقالات أو سماع أحاديث... ، وعلى أي حال فمن كان لديه ذلك النوع من التراكم – ولنرمز إليه بـ(ف) – وصادف مقالا يتناول الفكر

لا ليجهزه للناس، بل ليعرفهم على كيفية التعامل معه... فإنه قد يواجه إذن عقبتين رئيسيتين في فهم المقال:

أ): أن (ف) حينما يصادف مقالا يستهدف الدلالة على المعرفة ليأتيها الناس بأنفسهم، والمفروض أنه لم يعهد هـذا النمط من المقال في قراءته وسماعه للمقالات الدينية، حيث أن مـا كان يقرؤه (أو يسمعه) بهـذا الـصدد لم يكن إلا ثلاثـة أنواع رئيسيـة: إمـا مقـال وعظي، فكان يقرؤه للاتعـاظ مثلا، وإما مقـال متضمن لـمعلومات دينية، فكان يقرؤهـا ويحفظهـا، وإما مقـال يطرح الفكر الجاهز، فكان يقرؤه (ف) فما لم يفهمه أهمله، وما فهمه حفظه كما حفظ المعـلومات الدينية كالنصوص التاريخية مثلا... وكان يتصور أن الدين ليس إلا هذا الذي يفعله هو

أقول: فلو صادف (ف) مقالا يتناول الفكر لا ليجهزه للناس، بل ليعرفهم على كيفية التعامل معه... فإنه إما يعتبره كالمقالات الفكرية التي كان قد تعوّد عليـها، فيبـدأ بالتعامل معه بنفس الـطريقة، ولكن بـما أنه لا يجد في الـمقال فكرة (أو أفكارا) محددة جاهزة ليحفظها، فإنه سيهمله، وإن لم يستطع إهماله بسبب أو آخر، فسيقوم بتقطيعه كما يشاء، فما فهمه من المقاطيع حفظه، وما لم يفهمه تركه، فبهذا وذاك حصل على أشلاء مبعثرة مشوّهة قد تصلح للدلالة على أيّ شيء آخر غير العلم!

ب): وإذا كان (ف) قد تمكّن من اجتياز العقبة السابقة فتفهم الفرق بين المقال الجديد والمقالات الفكرية الأخرى التي كان قد عهدها، فإنه – إذن – سيواجه عقبة أخرى في الطريق، وهي صعوبة المقال حيث يتطلب بطبعه كثيرا من الدقة والجهد، خصوصا وأن (ف) كان قد تعوّد على قراءة وسماع مقالات سهلة، ولم يتعوّد على التعامل مع هذا النمط من الأحاديث التي لا يكاد يتم فهمها إلا ببحث مخلص منطوٍ على مشقة كبيرة...

× × × × × × × × × ×

وهناك عقبة أخرى قد يواجهها أيّ امرئ يصادف مقالا لتعليم الفكر، وإن لم يكن لديه تراكم من المعلومات. وتلك العقبة هي: أن هذا النوع من المقال يحمّله مسؤولية البحث والتعقل في العقائد، بدل الاعتماد على الغير، وبما أن ذلك عمل شاق جدّا، فبمجرد أن يبدأ الشخص يحس بذلك فإنه سينغلق تجاه المقال، ومن لا يهتم بالعلم لا يفهمه...

× × × × × × × × × ×

وبغض النظر عن العقبات المذكورة فإن (ف) الذي لديه تراكم من أفكار صحيحة وخاطئة، بل، وبتعبير أدقّ: كان لديه تراكم من مقروءات أو مسموعات فكرية صحيحة وخاطئة، والمفروض أنه ليس متعصبا، فإن ذلك سيمكنه من المقارنة التي هي ضرورية

في معرفة الهدى، على خلاف من لا يملك أيّة خلفية عن الأفكار الدينية الـمطروحة هنا وهناك، وأرى أن أي امرئ عاقل يستطيع أن يجرّب هذا على نفسه والآخرين...

---

(٣) لم أذكر المثال لأبيّن إمامة الإمام لك، فإني لست قادرا على جعله إماما لشخص معيّن، بل لم أرد منه بيـان إمـامته للنـاس عامـة وإن كنت أستهـدفه في أحاديثي، والذي أردتُه هناك هو الإشارة إلى الطريقة العامة لطلب المعرفة، لا الحديث عن الإمامة ومعالمها بالذات

---

(٤) الذي استهدفته في المقال السابق الإشارة إلى بعض منافذ المعرفة وأبعادها... ، وليس في الـمعرفة إجابة محدّدة ليضع أحد يده عليـها، ومن يبحث عن مسـائل كذلك فهو لا يطلب المعرفة، وإني أتأذى جدّا ممن يجزّئ أحاديثي التي إنما أستـهدف بها المعرفة فيحوّلها إلى معلومات يمكن وضع اليد على أيّة مسألة منها بمعزل عن المسائل الأخرى..

---

(٥) الكلمات المسطرة هنا وبهذه الصورة لا تعكس إمامة الإمام عليه السلام، وإن كان قائلها معتقدا بها مخلصا في تسطيرها، فإنها ليست إلا قفزات عمودية في الفضاء، وشيئا مبتورا مقطوعا عن جذوره وأبعاده... ، فهي لا تعكس الإمامة التي هي ميزان الأشياء والصراط المستقيم إن لم تشوّهها، ولعلها مستوحاة من أحاديثي التي كنت أركز فيها على هذا النمط من الأمور كمؤشرات إلى شجرة الإمامة ومنافذ واقعية للوصول إليها، فحُوّلت إلى أمور محددة قابلة للحفظ والترداد والنقل... ولاحول ولا قوّة إلا بالله

أجل، لو أن امرءً بحث العوامل المؤثرة في اللباس مثلا من جانب، والنتائج الواقعية المتأثرة به من جانب آخر، فهنالك تمكّن – بإذن اللّه – من تشخيص موقع اللباس في شجرة الإمامة ذات الأبعاد المختلفة ظاهرا والمترابطة حقيقة، فكانت له بذلك معرفة، وإني أدعو المؤمنين إلى هذا النوع من التعامل مع اللباس وغيره من مظاهر الحياة المتنوعة المختلفة...

---

(٦) قد يكون للجوانب المجهولة دخل في المعادلة المذكورة، فلو عُلمت لتغيرت الموازنة التي تكوّنت منها الصورة، ألا يكفي هذا الاحتمال في منع العبد عن الاسترسال في الحكم، وجعله

مترويا حذرا إلى أن يحصل له الاطمئنـان بأن ذلك الذي يجهله لا يغيّر ثوابت ما يعلمه الآن، وإنما لو علمه ازداد به علما؟! ...

---

(٧) لقد ذكرت في المقال السابق ما يشير إلى هذا، وعلى أي حال فإن الذي يربط عمل (ج) بائتمـامه لأمير المؤمنـين عليه السـلام أن يكون مؤمنـا به عن معرفـة، فإذا كان العبد كذلك أشارت جميع أعماله حينئذ إلى إمامة الإمام عليه السلام حتى العمل الذي يخالف بظاهره عمله

فمثلا إذا كان (ج) عالما بمعالم ولاية اللّه المتمثلة في ولاية الإمام عليه السلام ومؤمنا بهـا، ثم وجد – مثلا – أن الإمام كان يلبس الثوب المتواضع، وبـما أن (ج) يعرف إمامة الأئمة فمن الـطبيعي أنه يعرف موقع الثوب في تلك الإمامة ومدى وكيفية إسهامه فيهـا، فالمفروض أنه يعرف أن التواضع في الملبس وإن كان معلما من معالم إمامة الأئمة عليهم السلام، ولكنه لم يكن منطلقا من منطلقـاتها والسمة البارزة فيها، وإنـما كان مجرد أمر ضمن أمور كثيرة مترابطة متدرجة كان جميعها تشكل إمامتهم، ففصله عن إطاره العام والتركيز عليـه يشوّه الـمعرفة، كمـا أن التمسك به وحده في الـعمل قـد يضر بالإمـامة وهـدفها، فيجد (ج) أن

الإمامة التي يعرفهـا ويؤمن بهـا هي التي قد تدعوه إلى مسـايرة العرف في ثيابه، فيفعل وهو مطيع في ذلك لإمامه الذي يفترض أنه يعرفه قائما وقاعدا...

---

(٨) إني أجد أن من تلك الـعوامل التـأثر بالكاتب أو المتحدث، أو مجاراة الوضع القائم، أو الاستئناس بالمفهوم المطلوب، أوالتقوّي به، أو الاستزادة من الثقافة الدينية... ، كما ومنها المراءاة والتشخص..، وأما الإعجاب بالنفس فلا أجده مما يدفع المرء للاهتمام بالـمفهوم الديني، إن لم يمنعه عن ذلك، وكذلك التكبر، وأما التمثيل بـ« شخص يتـديّن فيزهد ويتقشف وفي نفسه أنه يبهر الناس بقدرته على هذا العمل » فأجده دليلا على أن المقطع المُشار إليه في المقال لم يُفهم بالمرّة، بل وجميع المقال أيضا! فوا ضيعة جهداه!

---

(٩) أنصحك بقراءة المقال السابق بدقة، فإنك لو كنت قرأته كذلك واستعنت في فهمه بثقةٍ لـما سألتني ما قد سألتني من الأمثلة للمقـارنة بينها وبين ما في بالك، وللتعرف على الـطريقة الـصحيحة للتـفكير... إني أكرر هنا أن المقال السابق لم يكن يستـهدف تزويد أحد بمعـلومات معيّنة للعمل أو المقارنة، وإنما استهدف

الإشارة إلى بعض الأصول والأبعاد العامّة للمعرفة، وكنت أتوقع أنه سيساعد طالب العلم في التعرف على المنطلق الصالح للتفكير الصحيح... ، ولم أتوقع ممن قرأ المقال وفهمه أن يظل يبحث عن معلومات معيّنة ليصحح بها أفكاره...

---

(١٠) ولكني لا أجد مجالا ولا نفعا للإجابة على تساؤلات خاصة كهذه، خاصة إذا كانت لي تجربة سابقة مع السائل، إلا أن يظهر لي ما يزيل أثر التجربة، وهو ما أتمناه دائما وأترصده... ، وإني لا أرى السؤال مخجلا مهما كان بسيطا وبعيدا عن الصواب مادام نابعا من نفس السائل وإحساسه بالحاجة وطلبا مخلصا للعلم...

وعلى أيّ حال فإني أشكرك على أن هيّأت لي برسالتك منطلقا واقعيا لتوضيح ما أراه نافعا، عسى أن ينفع غيرك إن لم ينفعك، ففي نهج البلاغة (الحكمة ٢٦٦) أن رجلا سأل أمير المؤمنين عليه السلام أن يعرّفه الإيمان، فقال عليه السلام: « إذا كان الغد فأتني حتّى أخبرك على أسماع الناس، فإن نسيت مقالتي حفظها عليك غيرك، فإن الكلام كالشاردة، يَنْقُفُها (أي يصيبها فيصيدها) هذا ويُخْطِؤُها هذا

---

(١١) إني أرى أن المرء يستحق الشكر على صراحته، فلا أرى معنى للاعتذار منها

وعلى أي حال أرجو أن يصلح اللّه أمري وأمرك ويجعل عاقبة أمرنا خيرًا ولا يتوفّانا إلا مسلمين، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

وفي الـختام أؤكـد ما لا أظنه يخـفى على عاقل أن ما ذكر هنـا لم يكن إلا مجرد إشارات جدّا سريعة إلى شيء قليل ومتفرق من جوانب المعرفة التي تكاد أن لا تُحصى، فهو لا ينفع إلا من تعامل معه كذلك...

محمد علي باقري

٢٠/ع١/ ١٤١٧

الرسالة الثالثة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

السيد محمد الباقري،

السلام عليكم

لـقد قرأت هـذه الصفحـات التي وضعت على حائط المسجد والمرتبطة بموضوع المعرفة

بصراحة أنا لم أفهم تفاصيل ما ذكرتموه (١) ولكن بعض هـذه الأمور التي ذكرتها أجدها في نفسي صحيحة مما جعلني أشعر بميل شديد اتجاه هذا الموضوع إجمالاً.

ولكنني لا أعرف كيف ومن أين أبدأ للحصول على المعرفة (٢)، فمثـلا لو افترضنا أنني بدأت بالـحضور بشكل مستمرّ إلى هـذا المسجد (٣) بالإضافة إلى تولّي من أعتـقد أنه يسلك هـذا الـطريق الذي أريد أن أسلكه أنا (٤) ثم بدأت بالتـدريج أفهم أن هنـاك مجموعة كبيرة من الأعمـال التي يجب الـقيام بهـا والتصرف بموجبـها وأخـرى يجب الامتناع عنها. فهل بعد هذا أكون قد حصلت على المعرفة المطلوبة.

لأن هذا الذي ذكرته من امتزاج الـمفاهيم والأفكار وتغذّي

النفس بها افترض أنها تحصل لي بشكل طبيعي ومن ثم تكون قد حصلت لي المعرفة المطـلوبة من دون أن أنتبه إلى هذا الأمر. (٥) هل فهمي هذا صحيح... أفيدوني

وجزاك اللّه خيرا.

ملاحظة: هذا النوع من الفهم موجود وأخشى أن يكون شائعا.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الجمعة ١٣/ ج١/ ١٤١٧

الجواب

(١) عليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته

إن الذي كنت قد كتبته في تلك الصفحات كانت إشارة إلى كيفية (تكوّن المعرفة في النفس) بشكل عام، حسب ما اعتقدته من ملاحظاتي للنفس البشرية في الأساس، مستعينا ومسترشدا بالقرآن الكريم والحديث الشريف، مضافا إلى قراءاتي المختلفة في شتى الجوانب المباشرة وغير المباشرة للعقيدة الدينية...

فلو أن رجلا كان قد قرأ تلك الصفحات لا استطلاعا أو طلبا لمعلومات أو أفكار دينية مثلا... بل بحثا عن وجه اللّه الذي كانت تحتاجه نفسه، وفهم ركائزها، فإني أرى أنه لو كان قد لاحظ نفسه حينئذ لوجد أنها كذلك تعمل، و – مضافا إلى ذلك – أراه كان يعلم إذن بنفسه أن ذلك هو الاتجاه الصحيح، وأنه ماشٍ سويًا على درب المعرفة، من دون أن يشعر بالحاجة إلى أحد ليستفتيه بشأن سلامة أصل هذا الطريق والاتجاه، وأما تفاصيل الطريق وخصوصياته فهي مما لا يمكن لأحد أن يعرفه بنفسه من دون التعلّم من ذي علم...

هذا لو كان الرجل يعيش في بيئة لا اختلاف فيهـا، فلم يكن فيها إلا المقال المنشور هنـا، وأما الآن فبما أنه يعلم بوجود اختلاف بين النـاس في فهم وجه اللّه فمن المتوقع أن لا يحصل له اطمئنان مستقرّ بـما في هذا المقال إلا إذا كان ملمًا بالمقالات الدينية المخالفة الأخرى... ، وإني أعتبره كـذلك حيث افترضته باحثـا عن وجه اللّه في قراءته للمقـال المنشور، فإني لا أستطيع أن أتصور طالب علم كذلك إلا أنه قد جرّب مجمل المقـالات المعروضة هنا وهناك فلم يجد فيها بُغية نفسه، ووجدها في ركائز هذا المقال وأسسه...

بل وحتى لو استطعتُ افتراض شخص لم يتسنّ له البحث عن الحق – بقدرة قادر – إلا في المقال المعروض هنا، فإني لا أظنه سيكتفي بما قد عُرض فيه وإن وجد ذلك في نفسه، بل أرى أنه يحـاول التأكد من صحة ما قد وجده في هذا الـمقال بالاطلاع على المقالات المعروضة الأخرى

أجل إن مَن صادف أن انطَلَقَ في بحثه عن وجه اللّه من المقال المعروض هنا، فلابدّ وأنه لا يكتفي به وإن وجده موافقا لمسار نفسه، وإنما يبحث عنه في آراء معروضة أخرى أيضا، فهنالك عرف الـخطأ، كما في روضة الكافي (ص٢٢) والنهج (الحكمة ١٧٣) عن أمير المؤمنين عليه السـلام أنـه قـال: « مَن اسْتَـقْبَلَ وُجُوْهَ الآراءِ

عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأ » ، فتمكن بذلك من معرفة الصواب كما نقل في روضة الكافي (ص٣٩٠) أيضا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « ... واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي حرّفه، ولن تعرفوا الضلالة حتى تعرفوا الهدى... ، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف، ورأيتم الفرية على اللّه وعلى رسوله والتحريف لكتابه... » ، ولعل إلى هذا أشار القرآن الكريم أيضا في ما قصّه عن إبراهيم عليه السلام من أنه بدأ حركته نحو الإيقان من النظر إلى المعتقدات الرائجة آنذاك...

× × × × × × × × × ×

ومما يجب أن يكون معلوما أني لا أدّعي أن مجرد اطلاع الشخص على الآراء المختلفة المعروضة يحدّد له الرأي الصائب، وإنما أعتقد أن ذلك سيساعده على معرفة الحق الذي تطلبه نفسه، انطلاقا من قاعدة عامّة وهي أن لكل نفس قابلية معرفة الحق الذي يبحث عنه الذهن فيعرضه عليها، ولعل إلى هذا يشير قول اللّه عزّ وجلّ (ق: ٣٧): « ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ »، وهذا أيضا مما ترمز إليه قصّة الإيمان التي نقلها القرآن المجيد عن إبراهيم عليه السلام، متجسدة فيما جرى من الحوار بين ذهنه ونفسه التي كانت تنكر وترفض أن يكون الآفل ربّها...

هذا ومن الضروري الانتباه بهذا الـصدد إلى أمر مهمّ جدًا وهو أن التأكد من الحق لا يستلزم الاطلاع على جميع ما يُقال، لا لأنه غير ممكن، بل – مضافا إليه – لأن الطمأنينة التي تنزع إليهـا النفس بفطرتهـا لا تتوقف على ذلك، وإنـما يتطلب الاطلاع الجادّ على المقالات التي تختلف في النظرة إلى (وجه اللّه) الذي لابدّ وأن يدعي جميع الـمقالات الدينية طرحه وبيانه للناس... ، وهذا النوع من المقالات قليلة متوفّرة ميسورة التناول من جهة، ومن جهة أخرى فإن فهمها لا يتطلب من الجهد والوقت ما لا يُطاق، فإن المطلوب ليس فهم جميع ما يحويه المقال من أفكار كثيرة، وإنـما فهمه كطريق، ويكفي في ذلك فهم منطلقات الـمقال ومحكماته، والمفروض أن صاحب ذلك النمط من المقال سيركز عليها جدًا ويمرّ عليها كثيراً فتتبيّن وتتضح للباحث في وقت قصير عادة

والـخلاصة: إن فهم دعوة الـمقال الدَعَوِي ميسور ولا يحتـاج إلى متـابعة طويلة، بخلاف الـمقالات التي تتناول معلومات دينية، أو أفكارا متجزّئة مما لا تحتاجه النفس في حركتهـا الـفطرية نحو الإيقان، وإن كان الذهن قد يستفيـد من الاطلاع عليـها بطريقة أو أخرى

× × × × × × × × × ×

أراني هنا بحاجة إلى تأكيـد وتوضيح ما أشرت إليه آنفا، فأقول: إن مَن يبحث عن الهدى لا يهتم بالكلمات التي يسمعها أو يقرؤها في مقال إلا بمقدار ما تدلّه على وجه اللّه عزّ وجلّ حسبما يتـصوره صاحب المـقال فيسعى إلى بيـانه للنـاس كأيّ صاحب مقـال ديني، فلا يضر البـاحث عن الحق أن يجد بعض عبـارات المقال غامضة غير مفهومة، بل وحتى لو وجدهـا خاطئة، ما لم تؤثر على الركائز التي بهـا تختـلف الآراء والـدعوات، وهذا هو الآخر مما يشخصه الباحث نفسه بشكل عام...

بل ولا يركز الباحث كذلك حتى على الأفكار المطروحة في الـمقال إلا بمقدار ما تساهم في بلورة الطريق الذي يسلكه صاحبه في اتجاه الإيمان باللّه ورسله واليوم الآخر، الأمر الذي لابدّ وأن يستهدفه صاحب أيّ مقال ديني... فلا يضره في فهم المقال – بل وحتى في اعتقـاده في كون الـمقال مؤشرا إلى الـهدى – لو كان قـد وجد فيـه أفـكارا غامضة غير مفهومة، بل وحتى خاطئة، ما لم يكن لها تأثير على مسار المقال وهدايته...

بنـاء على ما ذكرتُه مما أعتبره قاعدة عامّة للتعـامل مع الـمقالات الدعوية حتى غير الـدينية، فلو كنت قد فهمتَ محـاور الـمقال المعروض هنا لم يضرك غموض تفـاصيله وجهلك بها، وأما لو كنت قد احتملت أن يكون لتلك التفاصيل تأثير على فهمك لهداية

الـمقال وما يدعو إليه، فكان المتوقع إذن أن لا تصبر عن مناقشة تلك التفاصيل لتفهمها، وأنت تبحث عن الهدى

---

(٢) قد أشرت في الـمقال الأوّل المعروض إلى كيفيـة حصول المعرفة، ومنطلقهـا ومسارهـا... ، وكنت أتوقع أن يجد في ذلك طالب العلم والمعرفة مجالا مهمًا ومفيـدًا للبحث! ...

---

(٣) لقد أشرت آنفا إلى قاعدة عامّة للتعامل الصالح مع الأحاديث الدعوية، وأظنك تعرف بالتدبر فيها أن مجرد الاستمرار في حضور مجلس يجري فيه مقال عن المعرفة لا ينتج معرفة، وإنما الحضور الذي يكون طلبا للعلم وبالطريقة الصالحة...

---

(٤) لعلّك لم تقصد ما يشير إليه ظاهر عبارتك حيث جعلت (التولّي) المطلوب شيئا في عرض الاستمرار في الحضور والاستماع، فإن التولّي كذلك ليس مما يُتكلّف، وإنـما هو حبّ طبيعي يحصل في قلب المؤمن تجاه الـطريق الذي كان قد عرفه واعتقد أنه هو وجه اللّه الـذي يؤتى منه، فهنـالك يـحصل في قلبـه حبّ وتعـلق،

أي (ولاء) متشعب متدرج كالشجرة تجاه الأشياء التي تشير إلى ذلك الطريق، وكذلك الأشخاص الذين يجاهدون فيه

وأيضا يحصل في قلبه (براء) متشعّب كذلك ولكن في اتجاه معاكس لاتجاه الولاء، فبما أنه يحبّ الأمور التي تشير إلى الطريق الذي يعرفه ويعتقده، فهو يبغض أي أمر يتنافى معها، بغضًا متناسبا مع درجة منافاته لها، كما أنه يبغض كل من يدعو إلى طريق آخر مخالف للطريق الذي هو يعرفه ويعتقده

---

(٥) هذا الكلام هو الصحيح رغم ضعفه التعبيري، ولكن بشيء من التوضيح وهو أن من بدأ بالحصول على المعرفة كان من الطبيعي أن يبدأ في قرارة نفسه بالتصرف وفق المعرفة الحاصلة وحسب درجتها، أي أن قلب الشخص يبدأ تلقائيا بالحب والبغض وفق معرفته، ومن ثَمّ سيقوم بتجسيد مواقفه القلبية في الخارج... وإن لم يكن منتبها حين سلوكه النفسي أو الخارجي إلى أن له معرفة فعلا وأنه إنما يتصرف وفقها وعلى أساسها، إذ لا يُتوقع أن يكون صاحب المعرفة حين قيامه بعمل منتبها إلى أن ما يقوم به إنما يجسّد معرفته، بل المتوقع خلاف ذلك بشرح لا مجال له الآن...

وأما علم المرء بأن له معرفة في الأساس، أي كونه واعيا للمعرفة

الحاصلة له وشاهدا عليها فهو مما لابدّ منه لصاحب المعرفة، فلا تكون معرفة من دونه...

× × × × × × × × × ×

هذا وما دُمتُ قد تطرقت هنا إلى ما يتعلق بالعمل وارتباطه بالمعرفة فإني أستغل هذه الفرصة للإشارة إلى ما أراه مفيدا – بل ضروريا – بشأن هذا الموضوع

أبدأ الكلام بما قلتُه آنفا وهو: أن من بدأ بالحصول على المعرفة كان من الـطبيعي أن يبدأ بالتصرف قلبـيا وخارجيا وِفْقَها وحسب درجتها الـحاصلة... فأقول: بـما أنه يفعل كذلك فمن الطبيعي أن يقع في أخطاء فيكتشفها بنفسه ويصححهـا كلما زادت معرفته التي بطبيعتـها نامية متـدرجة... ، غير أن الأخطاء التي يتوقع أن يقع فيهـا المبتدئ خاصة ستكون كثيرة وخطرة، فقد ترتدّ على نفسه فتحبط معرفته الضعيفة... مضافا إلى ما لها من مردود ضار على أصل الـطريق وعلى سالكيه أيضـا... ، فللتنبيه إلى تلك الأخطـاء المتوقعة وما تستتبعها من أضرار، وما يمنعها أقول:

أجل، من الطبيعي أن يتصرف الشخص وفق درجة المعرفة الموجودة لديه، ولا يمكن أن لا يفعل كذلك، أي إنه لا يستطيع الامتناع بنفسه من العمل حسبما يعرف، فلئلا يقع في أخطاء كبيرة

خطرة لابدّ له من معين يعينه، لا بأن يردعه عن التصرفات الخاطئة قهرا كما يُعمل مع الأطفال والحيوان، وإنما بجعله يمتنع بنفسه عن تصرفات معينة، أو غير معينة وإن كانت تقتضيها معرفته وتدعوه إلى القيام بها... وذلك بالطريقة التالية:

إن الولاية هي العامل الوحيد الذي يستطيع أن يجعل الشخص صاحب المعرفة يمتنع بنفسه وباختياره عن العمل بما يعرف، فمثلا لو أن شخصا – ولنرمز إليه بـ (س) – بدأ يعرف وجه اللّه المتجسد في ولاية الأنبياء والأئمة عليهم السلام، واعتَقَد خطأ أن شيئا معينا يضادّ تلك الولاية، فمن الطبيعي أنه سيتصرف إذن وِفْقَ ما يعتقد . وبما أن من صميم المعرفة أيضا أنه يحب ويتولى من يراه أكثر معرفة من نفسه، فإن (س) سيطيعه إن منعه من ذلك التصرف، بل وحتى لو وجده غير راضٍ من تصرف معين وإن لم يمنع عنه، والمفروض أن معرفته تدفعه تلقائيا ليعرض ما يفعله على من يتولاه كذلك

هذا، ولا يخفى أن طاعة (س) لمن يتولاه كذلك ليست بسبب علمه الإجمالي بأن المطاع أكثر معرفة منه، فلو منعه من شيء تبين خطأ ذلك الشيء، فتعلّمه منه (س)... ، فإن هذا يحصل من دون أن يحبّه (س) بل وحتى لو كان يبغضه ما دام يثق بفهمه كما هو ملاحظ معروف، وإنما المقصود بالطاعة هي الاتباع الناتج عن

الولاية والحب، وإن كان ذلك الحب ناتجا في الأساس عن اعتقاد (س) الإجمالي بكون المطاع الأكثر معرفة

× × × × × × × × × ×

بناء على ذلك فلو كان (س) يعايش الولي المعصوم (ع) فإنه كان يتدخل في تصرفاته بالولاية ويحدّدها فتقل أخطاؤه.. ، وهذا ما نجده في روايات كان الأئمة عليهم السلام يمنعون بموجبها المؤمنين عامّة عن التصرف وفق ما كانوا يعرفون كالروايات المذكورة في بابي الكتمان والتقية من الكافي مثلا، أو روايات خاصة واردة في أشخاص معيَّنين، كما – ومن جانب آخر – فإن وجود الإمام كان يمنع حصول الإحباط الموجب للارتداد...

وأما الآن فأيضا من الممكن أن تتعالج هذه المشكلة بالولاية، وذلك بالشرح الآتي:

إن (س) الذي يفترض أنه بدأ يؤمن بالطريق فمن المفروض إذن أنه يبدأ يحب الذين يلتقي بهم ويتولاّهم ويعتبرهم مشاركين له في الأمر (الطريق)، ومعنى ذلك أن (س) يرى نفسه مسؤولا عنهم، فيأمرهم بما يراه نافعا لهم، وينهاهم عما يراه ضارًا... ، وفي المقابل يتوقع منهم أن يتحملوا مسؤوليته ويتولوا أمره فيسددوه ويكونوا عيونه وأدلته...

ومن الطبيعي أن يتزامن ظهور هذا التوقع في نفسه مع الإحساس بالذُّلّ تجاههم وحالة الانقياد لهم، فكأنه كان قد بايعهم على الطاعة المطلقة في شؤونه المختلفة حتى قضاياه الشخصية، فإذا أمروه بعمل أطاعهم وإن لم يعرف السبب، بل وإن تصورّهم مخطئين، ما لم يطلبوا محرَّمًا أو شيئا ضارًا بدينه... ، وإذا انتقدوه لم يتأذّ...

فبذلك سيكون هنالك بين المؤمنين تعاون عفوي وولاية تلقائية متبادلة يتدخلون بموجبها في شؤون بعضهم، فتقل بها أخطاء الفرد الخطرة وإن كان قليل المعرفة بعدُ، فإن المؤمن العالم سيجد هذا بوضوح وإن لم يبلغه بصدده نص خاص كرواية الكافي (١/ ٤٠٣) مثلا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله: « ثَلاَثٌ لاَ يَغلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئ مُسْلِم: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ للهِ وَالنَّصِيْحَةُ لأئمَّةِ الْمُسْلِمِيْنَ وَاللُّزُومُ لِجَمَاعَتِهِمْ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ مُحِيْطَةٌ مِنْ وَرَائِهِمْ... »

هذا، وإني لا أجد كبير فرق في « حالة الولاء » التي أشرت إليها بين ما يجده (س) – الذي افترضناه مؤمنا ذا معرفة – تجاه أصحابه، وبين ما يجده المؤمن الجاهل تجاه أصحابه، والذي يجعل المؤمن العالم مختلفا في هذا هو أنه يعرف موضع ولائه، ويعرف أسبابه وآثاره، وفوائده وأخطاره... فهو على بيّنة من أمره، بخلاف المؤمن الجاهل

فمثلا يعرف (س) – فيما يعرف بهذا الصدد – فيجد أن جميع المؤمنين بمعرفة – بما منهم نفسه – إنما هم متدرجون بلحاظ علمهم وإيمانهم بالطريق، فهو يجد أن كل واحد منهم هو إمام فعلا لمن هو دونه ومأموم لمن فوقه في نفس الوقت، فهو بذلك إنما يؤشر بإمامته لا إلى نفسه بل إلى إمامة من فوقه الذي هو الآخر إنما يشير بدوره إلى إمامة من هو فوقه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المعصوم ومن ثم إلى النبي صلى اللّه عليه وآله

ويجد (س) ويشهد أن تلك الإمامات المتسلسلة هي السمة البارزة والضرورية لكونهم في طريق واحد، وسيعرف بالتدريج أن تلك السمة التأشيرية لتلك الإمامات هي الضمان لبقاء الطريق مفتوحا لكل من أراد أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا، فإن الإمامة إذا لم تكن كذلك كانت بتراء صادّة عن سبيل اللّه، ومانعة لسير الناس الانسيابي الحرّ إلى اللّه عزّ وجلّ عبر المعصومين من الأئمة والنبي عليهم السلام

هذا، ومن المهمّ جدًا الانتباه إلى أن هذا الذي عبرت عنه بـ (تأشيرية الإمامة) من أهم محاور المعرفة، فمن أراد المعرفة يجب أن يمرّ عليها ويقف عندها طويلا... وإني لم أتوسع فيه هنا لا لضيق المجال فقط، بل وأيضا لأني أرى أن توسع الكاتب (أو المتحدث) في هذا النوع من مسائل المعرفة وإعلانها إعلانا

عاما سيبتذلـها ويُفقدها أهميتها في نظر الـقارئ (أو الـمستمع) الذي يجـدها ميسورة وإن لم يسْعَ إليـها، فمن الـطبيعي إذن أن تتحوّل إلى مجرد كلمـات وعبارات، ومن ثمت إلى معـلومات مشوّهـة وأشلاء مبعثرة في ذهنه...

× × × × × × × × × ×

الولايـة وطلب العـلم

إن الذي ذكرته من الولاية القائمة بين المؤمنين ومعالـمها وآثارها إنما كان راجعا إلى العمل، وأما ما يرجع إلى العلم والمعرفة فالمفروض أن لا يخضع فيه طالب المعرفة لأحد، إذ أن العـلم لا يحصل بالانقياد والطاعة، وإنـما بالتـدبّر الحرّ والتعقل، غير أن ملاحظتي لواقع النفوس قد دلّتني على أن الـمؤمن لا يكاد يتحرّر من التـأثر بالولاية حتى في طلبه للعلم والمعرفة الدينية وإن كان يتعـقل، بل إنه لا يستغني عمن يستعمل الولاية عليه حتى في التعليم والتعلّم الـصالح!، بل إن تجربتي أثبتت لي أن من يطلب العلم بالتعقل الذهني فقط فإنه سوف لا يتـديّن بما يتعقله ولو افترض إمكان حصوله على المعرفة بذلك!، وهو افتراض غير واقعي، بل وغير صحيح... ، ولعل إلى هذا يشير ما في الكافي (٨/ ١٨) عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أنه قال: « ... ، ومن استغنى بعقله زلّ... »

وهـذه الملاحظة والتجربة أثبتتـا لي بأن هناك أساسًا منطقيا لـما هو شائع من (حالة الحذر) الموجودة في نفس المتديّن تجاه الـمقالات الفكرية، إلا ما يثق بصـاحبه فلا يخـافه على دينه، ولا يفرق في هذا المتديّن بالضلال عن المتديّن بالهدى، وإن كانا يختلفان فيما كانا قد تديّنا على أساسه...

أجل، إن هذا الحذر المنتشر يعكس حقيقة في طبيعة النفس البشرية وهي أن للولاية تأثيرًا على الـعقيدة أيضـا وإن كانت صالـحة مبنية على الـعلم... ، فالمؤمن الـصالح من يعرف هـذه الـحقيقة – فيمـا يعرف – ويتعـامل على أساسهـا سواء في إمـامته للمتقـين وولايته عليهم، أم في ائتمـامه بهم وتوليه لهم... بشرح وتفصيل لا أرى المجال منـاسبا له الآن رغم ما له من أهميّة عظمى في المعرفة، وفي الكافي (١/ ١٨٣) عن أبي جعفر عليه السلام أن « ... مثله (أي مثل من لا إمام له من اللّه) كمثل شاة ضلّت عن راعيهـا وقطيعهـا... فهجمت ذعرة متحيرة تائهة لا راعي لها يرشـدها إلى مرعاها أو يردهـا، فبينما هي كذلك إذا اغتنم الذئب ضيعتها فأكلها... »

وعلى أي حال أرجو أن يصلح اللّه أمري وأمرك ويجعل عاقبة أمرنا خيرًا ولا يتوفّانا إلا مسلمين، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

× × × × × × × × × ×

وفي الـختام أؤكد ما لا أظنه يخفى على عاقل أن ما ذكر في هذا الـمقال ليس إلا مجرد إشارات جدّا سريعة إلى شيء قليل ومتفرق من جوانب الـمعرفة التي تكاد أن لا تُحصى، فهو لا ينفع إلا من تعامل معه كذلك...

محمد علي الباقري

٢٨/ جمادى الأولى/ ١٤١٧

الرسالة الرابعة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هناك بعض الأسئلة حول المقالات الموجودة في المسجد... فأختصر بعض ما ذكرته وأذكر السؤال... ذكرت في الموضوع الأوّل ما معناه « أن تحليل الشخص للمسائل قد يكون صحيحا ولكن لا يدل على معرفة والعكس كذلك أن يخطأ في تحليل بعض المسائل ولكن قد تكون له معرفة... وذكرت في الموضوع الثاني ما معناه « قد يجتمع عند الشخص أفكار صحيحة ذهنية وأخرى باطلة، لا معتقدات صحيحة وغير صحيحة. فالمعتقد هو واحدا صحيحا، وإن كان فيه أفكار خاطئة غير مؤثّرة. أو تكون معتقدا واحدا باطلا...

وبناءً على ما ذكرت في الموضوع الثاني « فإن مكان العقيدة في النفس، وهي لا تستطيع تقبل فكرة تتلقاها النفس من الذهن، فلابدّ أن لا تناقض الصورة الموحدة المؤلَّفة من الأفكار. ويجب أن تعانق تلك الأفكار فتذوب في الصورة منها. فلو كانت الفكرة الجديدة ملائمة للأفكار القائمة في النفس بشكل مترابط. فتشتبك كعقيدة موحدة، حاولت التوفيق بينها وتجعلها متناسقتين وذلك بالتصرف بالفكرة الجديدة لتصبح قابلة للذوبان في الصورة

العقـائدية القـائمة، وإن لـم تتمكن رفضت الـفكرة الـجديدة. إلا إذا كانت آبيـة الرفض قامت النفس بمراجعـة الـصورة الموحدة فيهـا وصياغتها لتستطيع احتضان الفكرة الجديدة...

نرى هنـا أن ذا الـمعرفة وصاحب الـعقيدة الصالـحة قد يكون له نتاج من الأفكار الخاطئة، ونرى كذلك أن الـعقيدة في النفس لا تستطيع تقبل فكرة تتلقاها من الذهن إذا لم توافق أو تتحد مع الصورة الموحّدة في النفس

فكيف يمكن لـصاحب المعرفة أن تكون له أخطـاء فكرية، والـعقيدة الصالـحة في النفس لا تقبل الـفكرة إذا ناقضت هـذه الـعقيدة. فهل الأخطـاء الـفكرية تختـلف عن الأفكار التي لا تتقبلهـا النفس من الذهن إذا ناقضت الـعقيدة الـموجودة في النفس؟؟؟ كيف أرجو أن توضح؟؟؟

وسؤال آخر:

ذكرت أن ما قد يجتمع عند الشخص هو أفكار ذهنية صحيحة...

(وبعـده ذكرت) « أن العقيدة في النفس... هي صورة موحدة ومؤلفة من أفكار. فما هو الفرق بين الأفكار الصحيحة وبين العقيدة المؤلفة من الأفكار القائمة في النفس؟؟

وجزاك اللّه خيرًا

الجـواب

بسم اللّه الرحمن الرحيم

لا أدري كيف غفلتَ عما كان المقال المذكور قد ركز عليه من أن العقيـدة الصالحة الـقائمة في النفس ليست هي مجموعة الأفكار الصحيحة، وإنما نتاجهـا... ، وعلى أي حال فما دمت قد سألتَ فإني سأغتنمه فرصة للإشارة إلى ما أراه مفيـدًا بهذا الصدد إن شاء اللّه، وإن كنت أستصعب جدًا الانطـلاق من هـذا النمط من الأسئلة للتعرف على مسار النفس الواقعي في حركتها الإيمانية...

× × × × × × × × × ×

إني أذكّرك بـما كنت قد كتبتُه عند تحليلي للعمل الاعتقادي الذي أشرتَ إليه في رسالتك، وإليك فيما يلي نصه:

« ويجب أن لا يخفى أن هذا لم يكن إلا تحليلا ذهنيا مبسطا، لا تصويرا حقيقيا لعملية الاحتضـان، أو الرفض، أو التوفيق التي تـحصل في النفس بتلقـائية وبسرعة عظيمة تأبى الرصد والملاحظة في حينها... ، ولا يخفى أيضا أن ما قد نسبتُه إلى النفس من العمليات المذكورة قد يقوم بها الذهن للنفس، فإن الفصل بين وظيفتيهما ليس ممكنا لي... »

ليس هـذا الذي نقلته هو العـامل الوحيد الذي يعيق الفهم الدقيق للحركة العقائدية التي تجري في الـنفس، فإن هنـاك عوامل أخرى أيضـا... ، فلا يتوقع أنني أعرف كل ما يدور هناك، أو قد أتمكن منه مستقبلا، ولا أراني بحاجة إلى تلك الدرجة من الفهم، وإنما إلى مقدار أشخص به سلامة مسار النفس في الاعتقاد، خاصة في عهد الـضلال الشامل كما هو الآن...

ثم وحتى إذا كانت الصورة كاملة واضحة في ذهني، وأمكنني نقلها إلى غيري كما هي عندي فإنها لا تكون مفهومة له بشكل واضح إلا بأن يقيسها على واقع ما يجري في نفسه... أللّهم إلا أن لا يكون ممن يتعامل مع ما نقل إليه كدليل ومشير إلى ما يجري في النفوس، وإنما كمجرد معلومة ذهنية مجثوثة من واقعها...

× × × × × × × × × ×

لتيسير البحث أفترض أن لكل امرئ ذهنا ونفسا، وأفترض أن دور النفس إنـما هو الـقبول والرفض، أو المعرفة والإنكار، أو الحب والبـغض... من دون أي تحليل وتعـليل، وأن دور الذهن هو التدقيق والتحليل والتقييم... ومع ذلك فإني لا أتقيّد بهذا الافتراض، فقـد أنسب عمل كل منهمـا إلى الآخر، بل وقـد أستـعمل كلمـة (القلب) قاصـدًا بهـا (النـفس)، وليس ذلك بضـائر شيئـا، بل قـد يسـاهم

في تـحرير ذهن الـقـارئ من قيود الـمصطلحات، وهو مما لابدّ منه لطـالب العـلم والباحث عن الحق... ، فبناء على ذلك أقول:

إن النفس السليمة توحي إلى الذهن أن يبحث عن الهدى الذي تنزع إليه بفطرتها ولا تـجده، فيقوم الـذهن بالبحث. ومن المعروف أن الذهن سيستعين بالـمعلومات التي يتلقاها من الخارج... وقد يكون بعضها خاطئا مثلا فتكون الفكرة المستنبطة منه خاطئة

ولتوضيح هذا الأمر أرجع إلى الـمثال الذي كنت قد ضربته سابقا حيث افترضت شخصـا اسمـه إبراهيم، وأنه يبـدأ بحثه مما يتـداوله مجتمعه بصـدد اللّه الذي يستـهدفه إبراهيم... ، فبناء على ذلك أقول: لو سمعهم يقولون مثلا: « لا وجود للّه » من الأساس، فإن ذهنه الذي كان قد تلقى تلك الـمعلومة سيكوّن منها فكرة بالطريقة التـالية: بـما أن الناس لا يعتقدون بوجود اللّه، وبما أنهم عقلاء والمفروض أنهم بحثوا عن الحق، فلم يثبت لهم أنه حق، فالفكرة المستنبطة إذن هي أن (لا وجود للّه) أي أن المعلومة قد تحوّلت إلى فكرة! ...

فالذهن يعرض الفكرة المذكورة على النفس حيث من المفروض أنها لا تحبّ هـذه الفكرة أي أنها لا تنسجم مع فطرتها فلا تستطيع أن تقبلها وتعتقدها... فيبدأ ذهن إبراهيم بالبحث عن اللّه الذي تبيّن

أنه موجود رغم أنف الـمنكرين... ، فلو وجد مثلا أن هناك جماعة تقول بوجود إله للكون ولكنه لا يريد من النـاس شيئـا بعـد أن كان قد خلقهم، فاستنبط الذهن من هذه الملاحظة أيضا فكرة فحوّلها إلى النفس، فلم تقبلها كذلك لعدم انسجامها مع طبيعة النفس التي تجد أن للّه الأمر كما له الخلق، وأنه لم يخلقهم عبثا...

أجل، إن النفس السليمة ستنكر هذا النمط من الأفكار بوضوح لاصطدامه بأساسيات فطرتها، وفي الحقيقة إن النفس لا تحتاج البحث عن أصل وجود اللّه فلا تطلب ذلك من الذهن، وكذلك البحث عن أصل صفات اللّه... كما لا يوجد واقع لما افترضته من مجتمع ينفي وجود اللّه بالمرّة... ولم أذكر المثالين إلا للتوضيح والتمهيد لما سأقوله الآن:

إن النفس المستيقنة باللّه بفطرتها إنما تحتاج أن يبحث لها الذهن عن وجه اللّه ودينه لكي تأتيه منه وتعبده كما كان اللّه عزّ وجلّ قد عهد إليها عبادته حين خلقها، فلو وجد الذهن في بحثه أن هناك أناسا يعتقدون بأن من دين اللّه حب الدنيا والاهتمام بها مثلا، فقام بتجهيز مفهوم على هذا الأساس ونقله إلى النفس، فإن النفس لا ترفض هذا المفهوم وإن كانت سليمة ما دامت في بداية الطريق ولم تتكون لها معرفة بعدُ، لكن المفروض أنها سوف تبدأ إذن بحب الدنيا طاعةً للّه الذي كان قد دعا إليه حسب الفرض،

بعد أن كانت تحبها (أي تشتهيها) بغريزتها

(ملاحظة: إني على الإجمال أرى أن النفس السليمة إنـما تتوقع أن لا يدعو الدين إلى اتبـاع الشـهوات... ، وهـذا يعني أن النفس النازعة إلى اللّه عزّ وجلّ لا تتفـاعل مع هـذه الدعوة ولا تجد بُغيتها الفطرية في الدين الداعي للشهوات وإن كانت تنجذب إليه بشـهوتها... ، بل أراهـا تتـطلع إلى أن ينـهى الدين عن هوى النفس، ولـذلك أجد أنها تتعـاطف مع ما يقوم به الـمرتاضون مثـلا وتعـظمهم... ، في حين أنهـا لا تعـامل متبـعي الشهوات كذلك، وإن كانت تشتهي وضعهم...

رغم أن ملاحظة هذه الـحالة – كسائر حالات النفس الطبيعية – مهمّة جدًا لمعرفة أسس العقيدة ومنطلقاتها الواقعية فإني لم أجد لي بدًا من إهمالها هنا تيسيرًا للبحث...)

× × × × × × × × × × ×

أعود فأقول: وإذا وجد إبراهيم أن هؤلاء الناس يعتقدون كذلك أن من الدين حبّ الآخرة والاهتمام بها أيضـا فقام ذهنه كـذلك بتجهيز هـذه الفكرة وتحويلها إلى النفس، فبما أن النفس لا تستطيع أن تحبّ أكثر من طريق واحد، إذ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ... فإنها ستقوم بتركيبهما (أو يفعله الذهن لها) ليصبحا شيئـا

واحدا، بأن تجعل أحدهما أصلا والثاني تبعا... وبذلك تبدأ الصورة البدائية للمعرفة بالتكوّن في النفس

ثم لو أن إبراهيم – بسبب أو آخر – قد ركّب الآخرة على الدنيا وجعل الأولى تبعا للثـانية، فإن نفسه ستتوقع إذن أن تتلقى أفكارا تؤيّد هـذا الذي قد فعـلته... ، فإن وجد ذهنه في بحثه أن الإمام الذي يفترض كون إبراهيم مؤمنًا به قد لبس لباسا غاليا مثلا، فقام بتـحويل النص إلى فكرة بأنه لم يلبس ذلك إلا ويعتبره حسَنًا... نمت بذلك الـعقيدة في نفسه بأهمية الدنيا

ولو أنه من جانب آخر وجد أن عليًا عليه السلام كان يلبس الخشن من الثـياب مثلا فجهزه ذهنه مفهوما للنفس، فإنها سترتبك وتقلق فتقوم بالتصرف في المفهوم الجديد (أو يفعـله الذهن لها) ليتناسب مع نواة المعرفة المتكونة فيها، بأن تعتبره – مثلا – حالة استثنائية لا تؤشر إلى وجه اللّه (أي الدين)، فيستمر تعاملها مع الدين وفق الصورة الأولى...

ولو أنه وجد أن عليا عليه السلام كان يدعو إلى خشونة اللباس في الحياة الـدنيا... فإن هـذا سيهزّ نفسه ويشكّكهـا في ما كانت قد تكوّنت لديها من معرفة بهذا الـصدد، فتبدأ بالتعامل مع الصورة الجديدة المغايرة الآخذة بالظهور...

ثم إن وجد أن عليًا كان يدعو أيضا إلى جشوبة الطعام وإلى التواضع في المسكن... فإن تلك الصورة الجديدة ستستقر في نفسه وتترسخ وتتشعّب فتكون شجرة، خصوصا إذا انتبه الذهن إلى ما يعمله أئمة الضلال، وأخذ يتحرّى خطواتهم وأثرها على الإيـمان باللّه واليوم الآخر...

مزيد من التوضيح

أحاول أن آتي الموضوع من زاوية أخرى فأقول: بـما أن من طبيعة النفس أنها تنزع إلى اليقين فإنها تتطلع إلى ما يسند معرفتها الـحاصلة لتزداد يقينـا، فتوحي إلى الذهن أن يبحث عما يؤيّد ويرسخ المعرفة الموجودة، وبنفس السبب تكون أكثر تهيّئًا لتقبّل المفاهيم المساندة لمعرفتها أكثر من المفاهيم المنافية لها

وبـما أن الذهن ليس معصوما فيما يقوم به من استنباط المفاهيم فقد يتسرّع ويستنبط فكرة خاطئة فيحوّلها إلى النفس فتتقبلها لكونها مناسبة بإجمالها لشجرة المعرفة المتكوّنة فيها، والمفروض أن النفس لا تتعامل مع الأفكار كأشياء متجزّئة، وإنما مع الصورة المتكوّنة من الأفـكار الـمنصهرة في بعضهـا وبنِسَبٍ معيّنـة من دون أن تلتـفت إلى تلك النِّسَب ومقـاديرها، حيث أنهـا لا تعرف الصورة إلا بإجمالهـا، أي أنها لا تستطيع أن تفرّق بين صورة وأخرى في الرفض والقبول إلا إذا كانتا مختلفتين تماما

بل إن القلب السليم لا يعرف إلا (طريقين) بما لكل واحد من معالم متكوّنة من خصائص متداخلة تفرق بينهما حيث يقول اللّه عزّ وجلّ: « ... وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » ... ، وأما التفاصيل التي لا تؤثر على اتجاه الطريق ومعالمه فلا يعرفها القلب بنفسه مباشرة وإن كان سليما، وعلى ذلك فقد يخطئ فيقبل ما لا يستحق القبول، ولا يخرج بذلك من الهدى ما لم يكن قد استهدف الخطأ وتعمّده ووجّه وجهه إليه وانشرح له، فإن هذا الخطأ مما يغفره اللّه إن شاء، كما في قوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيْدًا » ، وقوله تعالى: « ... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيْمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوْبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » ، وفي الكافي (٢/ ٤٦٤) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام كثيرا ما يقول في خطبته: « يا أيّها الناس دينكم دينكم فإن السيّئة فيه خير من الحسنة في غيره، والسيّئة فيه تُغفر والحسنة في غيره لا تُقبل »

× × × × × × × × × ×

ولأضرب للنفس في هذا مثلا ببصر الإنسان حيث تستطيع أن تشخص اللون الأبيض وتفرق بينه وبين الألوان الأخرى، ولا يضر هذا التشخيص إذا كان مع البياض شيء من لون آخر ما لم يتحوّل بذلك إلى لون مغاير للأبيض بصورة ملحوظة للعين المجرّدة،

وذلك لأن العين المجرّدة لا تستطيع أن تشخص اللون الدخيل المختلط بالبياض ما لم يبلغ درجة كبيرة... ، كذلك النفس ففي حين أنها تعرف (نجد الهدى) وتفرق بينه وبين (نجد الضلال) فهي لا تستطيع أن تعرف بنفسها جميع المسائل التي يتكوّن منها الهدى أو الضلال، فقد يتسرب إليها بعض المفاهيم المتناسبة لنهج الضلال فتمتزج بالمفاهيم المتكونة منها الهدى فتكون النفس مهتدية بذلك، وكذلك العكس... إلا أن تكون تلك الأفكار من النمط الذي يقلب الطريق ويحوّله من الهدى إلى الضلال، أو من الضلال إلى الهدى...

فمثلا إن وجد الذهن في القرآن الكريم أن اللّه بعث النبي صلّى اللّه عليه وآله ليدعو الناس إلى عبادة اللّه وحده، فحوّله إلى النفس فإن هذا مما تعرفه النفس مسبقا بفطرتها، ثم وجد فيه أن اللّه قد شرّع القتال لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فوجد أن الفتنة تنافي دين اللّه، ثم وجد في الكتاب أيضا أن المال فتنة، ووجد باستقرائه للنفوس أن المال يستضعفها فعلاً ويلهيها عن ذكر اللّه عزّ وجلّ والقيام بالقسط، فحوّل هذا المفهوم إلى النفس فتبدأ النفس بذلك تكره المال الذي ينافي دين اللّه

ولو أنه وجد – مثلا – في الكافي (٢/ ٢٦٥) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « قال أمير المؤمنين عليه السلام: الفقر أزين

للمؤمن من العذار على خدّ الفرس » فاستنبط منه ذهنه مفـهوما وهو أن المجتمع المؤمن الذي يسعى إليه الإسلام لابدّ وأن يكون فقيرا لا يملك فيه أحد مالا... ، فحوّله إلى نفسه، فتنمو هنالك معرفة في اتجاه أن أئمة الـدين إنما كانوا يسعون لئلا يكون للناس مال...

ولنفرض أن النفس ظلّت سليمـة فلم تتـعصّب لتملي على الـذهن بأن يغـلق ملفّ البحث ويجـادل عمّا فيهـا، فوجد الذهن في بحثه بهـذا الـصدد أن في أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وآله من كان يملك المال، ووجد أن هناك كثيرا من التشريعات مبنيّة على افتراض وجود الـمال في أيدي المؤمنين، فيتبيّن له من كل ذلك في الأخير وبالتدريج أن المفهوم السابق كان مستعجلا وخاطئا...

وبتبع ذلك الاكتشاف المتدرج فإن النفس المتجاوبة مع الذهن تبدأ تشك فيما كانت قد اعتقدته، ثم تتأكد من خطئه فتتخلّى عنه... ، غير أن هذا التغيّر في الصورة المتكوّنة في النفس رغم كبره لا يقضي على كل البناء المعرفي القائم فيها، فيظلّ الـمال هناك فتنة كما كان، والذي انهار هو طريقة التعامل معه... ، إلا أن يجد الذهن نصوصا دينية تدعو إلى الاهتمام بالمال والرغبة إليه، فهذا سيصطدم بأصل كون الـمال فتنة، بل سيهزّ شجرة المعرفة التي من أساسياتها حقارة الدنيا وكونها متاعا...

× × × × × × × × × ×

إن هذا الذي ذكرتُ كان مثالا لخطأ كبير مؤثر على المعرفة، وإليك مثال واقعي لنمط آخر من الخطأ الذي يكون تأثيره أقلّ:

رجل كان يعلم أن ما رواه الكافي (٢/ ٢٦٢) مثلا من قيام النبي صلّى اللّه عليه وآله بتحقير المال والدنيا لم يكن حالة استثنائية عابرة، فقد كان ذلك من أهمّ أعماله كوليّ للمؤمنين... ، وكان يعتقد أن تواضعه (ص) في المطعم والملبس مثلا كان يؤدي – فيما يؤدّي – نفس الدور أيضا، أي تحقير المال والدنيا في النفوس، كما في الكافي (١/ ٤١٠) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « إن اللّه جعلني إماما لخلقه، ففرض عليَّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس، كي يقتدي الفقير بفقري، ولا يُطغي الغني غناه »...

وكان يفكر أن يكون كذلك مطعم وملبس جميع الأئمة عليهم السلام ما داموا أئمة... ، غير أنه وجدهم يختلفون في ملابسهم عن النبي وأمير المؤمنين عليهما السلام، حيث كانت ملابسهم متعارفة رغم كون العرف مسايرًا للدنيا ومزيّنًا لها... ، ثم عرف بالبحث أن ذلك لأنهم لم يكونوا قائمين مبسوطي الأيدي كما كان النبي صلّى اللّه عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام في مدة ولايته، فلم يكونوا يستطيعون تحقير الدنيا للناس بهذا النمط

من الأعمال، بل إنما كان يرتدّ عليهم فيهينهم في الأنظار بدل أن يساهم في تحطيم الدنيا وأهلها في نفوس الناس...

إذن كانت تلك الفكرة التي كان يعتقدها الرجل خاطئة، غير أنها حيث لم تكن الأساس في اعتقاده بأن من أصول ولاية الإمام تحقير الدنيا وزينتها في النفوس، وذلك ضمن شجرة المعرفة المتشعبة المترابطة... فخطأ تلك الفكرة لم يكن يؤثر على صحة عقيدته ومسارها بهذا الصدد...

× × × × × × × × × × ×

وبهذا الصدد أقول أيضا: إني أجد أن معرفتي الدينية تتسع وتتعمق باستمرار، وليس ذلك إلا بأني لا أكاد أتوقف من التفكير في مسائل المعرفة، فأستنبط فكرة جديدة، وأكتشف خطأ في فكرة موجودة أونقصا فيها فأصحح الخطأ وأصلح الناقص... ، فتحصل بذلك حركة مستمرة في أفكاري، وبتبعها يحصل نموّ مستمر (لا تغيّر وتبدّل) في عقيدتي بشكل عام رغم ما قد يكون هناك توقف أو تراجع قليل أو كبير في جانب..

إني لا أراني في هذا بِدْعًا من الناس واستثناءً، فإني أرى أن ذلك هو ديدن جميع الذين يعتقدون بتعقّل ولا يفكرون إلا ليعرفوا الأمور التي إنما يحتاجونها لأجل الاعتقاد... فإني أرى أن العقيدة

الـصالحة لا تكون إلا كـذلك، أي كشجرة طيّبة، أو كجسدٍ حيٍّ إنما تتجـدد خلاياه باستمرار فيظلّ بذلك حيًا ناميًا، وكما أن التبدل المستمرّ في الخلايا لا يغيّر هوية الجسد الخاصّة ولا يقلبها إلى هوية أخرى، فكـذلك تبدل الأفكار وتجددهـا لا يغيّر الـعقيدة إذا كانت طيّبة مبنيّة على أساس صالح، وإنـما يُبقيهـا حيّة نامية لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها...

أجل، إن هذا النموّ الاعتقادي المستمرّ للشخص المؤمن إنما يعكس – فيما يعكس – نموًا في علمه، وزيادة العلم لا تكون إلا بتغير في الأفكار سواء أكان التغيّر عبارة عن تبدّل فكرة بفكرة أخرى مماثلة، أم كان عبـارة عن تـطوّر فكرة وتكاملهـا... فإن هـذا أيضـا تحوّل من فكر خاطئ إلى ما هو صحيح، فإن الفكرة الناقصة ليست إلا فكرة خاطئة إذا قيست بالكاملة...

...كـذلك يزداد الـعالم علمًا، ويزداد الذين آمنوا إيـمانا، وَيَزِيْدُ اللَّهُ الَّذِيْنَ اهْتَدَوْا هُدًى... ، ويقول اللّه عزّ وجلّ: « إِنَّ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » ...

هذا وأكتفي بهذا الـمقدار، وإن كان الموضوع شجونا يتطلب طويلا من الحديث وكثيرًا من الشرح... والحمد للّه ربّ العالمين

وأرجو أن يصلح اللّه أمري وأمرك ويجعل عاقبة أمرنا خيرًا ولا

يتوفّانا إلا مسلمين، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

× × × × × × × × × × ×

وفي الختام أؤكد ما لا أظنه يخفى على عاقل أن ما ذكر في هذا المقال ليس إلا مجرد إشارات جدّا سريعة إلى شيء قليل ومتفرق من جوانب المعرفة التي تكاد أن لا تُحصى، فهو لا ينفع إلا من تعامل معه كذلك...

هذا وإني أعلن استعدادي للتحاور حول ما ذكر في هذا المقال، فأرجو ممن يرغب في ذلك أن يكتب ما يثير المقال في نفسه من تساؤلات... فيناولنيه، أو يضعه في الصندوق، فإن احتملتُ أن التساؤل المطروح قد يعني حاجة السائل الصادقة، وتوقعتُ في التعليق عليه وإعلانه نفعا لرواد المسجد، فسوف أعلق عليه إن شاء اللّه وأعلنه كما فعلت بهذه الرسالة، ولا يمنعني عن ذلك بساطة السؤال بل وحتى لوكان يبدو تافها مثلا، ما لم يكن متكلفا...

ومن الطبيعي أني قد أخطئ في التمييز بين السؤال الصادق والمتكلّف، فلا يسبب إهمالي لسؤال امرئٍ إحباطا له أو تأذيا...

محمد علي باقري

٢٠/ جمادى الثانية/ ١٤١٧